دبرت فتنة سوء تستعيد بها ... من مجدك الباطل الغرار ماهدموا
مجد كبير طوته ظلمة كثفت ... ثم انجلت فاذا ما تحتها ورم
كروا بعزمة حر جاء منتصراً ... لنفسه واستباحوا منك ماحترموا
فانزلوك عن العرش الرفيع وما ... كانوا يريدونها لكنهم رغموا
تأبى الشريعة ان تبقيك حافظها ... وانت بالغدر والاغواء متهم
فاليوم تعلم عقبى من يخون ومن ... يطغى وتندم اذ لا ينفع الندم
هبطت من ثمة الامجاد مخذراً ... كصخرة حطها من شاهق عرم
ففي هبوطك عاد الملك مرتفعاً ... وفي هلاكك كل الخلق قد سلموا
كانت بجبالك الاقدار عابسة ... فاصبحت بعد ما ادبرت تبتسم

دمشق :ف

السلطان عبد الحميد المخلوع

قال جاء في الملوك من ترضيك اخلاقه واعماله لضعف التربية الدينية والمدنية ولان الملك بكر فيقتضي له عقل كبير يحسن به صاحبه التصرف ويراعي فيه حقوق الخالق والخلائق . والناظر في ملوك بني عثمان والملك متسلسل فيهم منذ زهاء ستة قرون من تأمل الفحل الجالس على عرش السلطنة فقد رأيناهم وفيهم الاشرق والاحمق والذكي والمسرف على نفسه والسفاك ولكن لم يأت فيهم على التحقيق مثل السلطان الخامس والثلاثين عبد الحميد الثاني

نقول فيهم وما احتجنا ان نقول في غيرهم من ملوك الاسلام بل وفي الامم

الاخرى فقد تدبرنا تراجم الوف من الملوك والعظماء ولم أشهد لعبد الحميد مثيلاً في اخلاقه واعماله . على رأيناه يشبه الناصر لدين الله العباسي بتجسسه وحرصه والحاكم بامر الله الفاطمي بهذيانه وتلونه والحجاج بن يوسف الثقفي ببطشه وسفكه والسلطان ابراهيم العثماني بسفاهته واسرافه . ومن جمع في شخصه هذه الصفات مجتمعة كان جديراً بان يدعى طاغية الملوك والسلاطين .

تولى عبد الحميد زمام السلطنة وكيلاً عن اخيه مراد الخامس لمرض طرأ على عقله وكتب على نفسه عهداً دفعه لمدحت باشا ناشر اعلام الحرية في المملكة العثمانية ثم ارسل على ما يقال من احرق دار مدحت باشا وحرق العهد في جملة ما حرق واخذ يستجلب قلوب اكثر اهالي الاستانة مدة وكالته حتى اجتمع الصدر محمد رشدي باشا ومدحت باشا فقررا دعوة رجال الدولة الى الباب العالي للنظر في توسيد السلطنة الى عبد الحميد اصالة فاجتمع نحو الف شخص من الكبراء وقرروا ان يجيبوا السلطان مراد مطلق لا يريحني ان يفيق منه فافتى شيخ الاسلام بخلع امامته وبويع لعبد الحميد الذي اظهر اولاً بالميل الى الحكم الدستوري ومع القانون الاساسي ثم سلبه واخذل مجلس الامة واتعب مدحت باشا في معاملة اخلاقه وكان اول عهد لكتبه معه انه اخذ على نفسه ان يعين لرئاسة كتاب الباب نامق كمال بك الكاتب الشاعر الشهير وضيا بك وليس للاثنين فهو غير انه اخذ يدس الدسائس وينفي مدحت باشا ثم ارسل به الى الطائف فحبس في حبسها مدة ثم اغرز بخنقه

واخذ السلطان يكثر من التضييق على اخيه السلطان مراد وعلى سائر افراد الاسرة السلطانية ولا سيما ولي عهد السلطنة السلطان الجديد محمد خان الخامس الحالي ويشيع كل من عرف بالانكار عليه من الوزراء والعظماء

فالقى بتلك الرعة في نفوس قواد الملكة ورجال سياستها فصاروا يسيرون على رعايته وكل من خالفها ولو في سره اقصاه وسجنه وعذبه وكلما مضت سنة على ملكه يزداد مراناً على هذه الفعال ويبالغ في الاحتياط لنفسه وغدا يتولى كل امر بلغائه ويعد ارباب الوجدان من رجال الدولة ويستعيض عنهم باناس ممن يصطنعهم وما يصطنع الا الاسافل من كل جنس من اجناس الدولة لعلمه بانهم ينادون بكل مبدإ في سبيل نصرته على الباطل حتى آلت الزمة الدولة في العهد الاخير الى ايدي السفلة من اعوانه الجهلاء الاطماة الا قليلاً.

واذ كان مفطوراً على الجمع وحسب ان المال يعمل كل شيء اخذ يملك الاملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلاطين فكان كلما سمع بان في اقليم كذا اراضي من املاك الدولة يحتال لاخذها بالثمن ان كانت من الاملاك الاميرية او بثمن طفيف ان كانت للافراد ثم الف الشركة الخيرية لتسيير السفن في موانئ الاستانة وشركة اخرى لخط بين البصرة وبغداد وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع ومعامل لصنع السجاد وغيره وضارب بالاوراق المالية وهكذا اصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً لا يهتم بشيء من امر الملك الا اذا كان تقريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثرة ضاقت بها خزينة الامة وكلهم احتالوا بان اخطأوا فلهم الاجر وان اصابوا فحدث ما شئت ان تحدث عما ينال عليهم من انعامه واحسانه. حتى لقد قل جداً في عماله من لم يتجسس له لاسيما بعد ان رأى الناس ان الترقي في الوظائف لا يتأتى في الاغلب الا من طريق الجاسوسية

وبهذا استنزل غضب عقلاء الامة واحرارها وكان كلما بالغ في الضغط

عليهم والشدة في ارهاقهم واعنائهم يقوم عندهم بقوة الميل الى التعلم . فكانت مدارس الدولة ولاسيما العالية منها على شدة المراقبة عليها شدة لا يتصور العقل اكثر منها وعلى اصدار اوامره تترى لجعل المعارف صورية لا حقيقية — منبعث تلك الشعلة التي قضت على استبداده الذي لم يكد يوجد له مثيل في تاريخ الامم فتخرج المتخرجون فيها اسس الحكومة المطلقة المدمرة واقاموا مكانها على انقاض اساس الحكومة المقيدة المعمرة

عرف عبد الحميد ان بالمدارس والمطبوعات تستنير العقول فيقل الراضون عن حكمه فالتشأ يضيق الخناق على المدارس حتى حظر ان يعلم فيها التاريخ وعلوم السياسة والاجتماع لانها ترقي العقل وتفتح الاذهان وتدعو الامة الى سبل الرقي والامان

ورأت المطبوعات منه ومن اعوانه الجهلاء خصوصاً يكفي في تهتهم انهم اعداء كل فكر وارتقاء وتجديد حتى اصبح ما يطلع تحت السماء الثمانية في الثلثين الاخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزهد وتلفيق اوامانيح كاذبة له ولارباب المظاهر او اموراً عادية لا ترقي عقلاً ولا تنزيل جهلاً .

ووصلت المراقبة على المطبوعات في ايامه الى درجة من الهزل لم تصل اليها في امة معلوبة على امرها فرفعت من المعاجم كثير من الالفاظ كالعدل والمساواة والقانون الاساسي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل واصبحت الجرائد اوفقاً تضرب بتقديسه وتأليهه والعياذ بالله او تكتب في الثانية من الاخبار والافكار . جرى كل هذا برأيه ورضاه لا كما يزعم بعض من يريدون ان يتحلوا له الاعذار الباردة من انها كانت من عماله ووزرائه وهو لا علم له بما يأتون .

كثرت في الايام الحميدية انواع المظالم واصبح كل ما طال عهده يشتد في اعنات من يخالف له فكراً او يعرض له في الاصلاح امراً حتى صار بعض العقلاء من عماله يتظاهرون بالبله او يقطعون عن الخدمة لان سلطانهم لا يرضيه الا ان يكونوا على قدمه في الظلم وارتكاب المنكرات. ولقد نصح له بعض سفراء الدول منذ بضع سنين ان يكف من شرور بعض العمال لان استرسالهم فيما هم يسفط شأن المملكة ويضر باستقبالها فقال لهم وماذا اعمل مع من ذكرتموهم يجبوني ويتفانون في خدمتي اي انهم في حل من عمل ما ارادوا من العسف في الامة ما داموا يظهرون له الحب ويخدمون اغراضه

اشتهر عبد الحميد بالحقد الشديد والحرص الاكيد والحدة المتناهية والاحتيال الذي يطلي على ضعاف العقول فيقولون انه الدهاء والحكمة. وكانت هذه الاخلاق بادية عليه قبل ان يلي امر الامة حتى قال ابو لبون الذي فيه يوم رآه مع عمه السلطان عبد العزيز في ازيرن هذا الفتى سيجيء منه داهية راقية فما هو الا ان قبض الله له الكرسي على مرير آل عثمان حتى صحت فراسة ابو لبون فيه بل برز في هذا الضمار

كان السلطان عبد المجيد يحب ابنه مراداً اكثر من عبد الحميد لان هذا كان يبدو عليه الخبث منذ الصغر ويلمع شرعه يتحسس لعمه السلطان عبد العزيز على اخوته وآل بيته لينال منه الاحسان ويتلوفي كشف عورات اخيه مراد خاصة وكانت تقاريره للسلطان عبد العزيز متصلة كتقارير جواسيسه في عهد سلطنته وتظاهر السلطان عبد العزيز على تساهله بالسفاسف، يكفي في بيان الفرق بين اخلاق السلطان مراد واخلاق السلطان عبد الحميد ان الاول كان يعنى في صباه بالشعر والموسيقى ودرس

مدنية اوربا وتاريخها على حين كان اخوه لا همّ له الا درس السحر والطلسمات وضرب المندل واخذ الفأل وتقريب ذلك من اشباح البله والدجالين

مضى ثلث قرن على الامة العثمانية وهي تعنى في سلطانها فوات يجنون لافناء عقل وكنت اذا خلوت حق بخاصته وصنائعه يجدثونك من الاعجوبة والخلاعة ما تسأل الله معه السلامة وتستهول على فساد اخلاق اكثر من فساد الحكام والعمال وكل منهم يورد لك من اسباب اضطراره الى الصبر على هذه الجريمة ما هو اعجب العجاب

والاسراف في مال الامة استغل عبد الحميد قلوب الاغلب من رؤساء العلماء وهم جاهلون فكانوا يكتبون على الله الناس ويذكرون لهم من صفات سلطانهم ما هو الزور بعينه واذا فتح للمصلين افواههم بانقد سكتوهم وحرموا الكلام المنكر عليهم . والفلوس سيف عالم على الدقيق والجليل من بيت الامة وما كان يهم الا الامور الصغيرة ولا سيما ما كان منها متعلقاً بشخصه اما عمران البلاد وترقية معارفها وصناعاتها وزراعتها وتجارتها فلم يكن لها قيد في شعل افكاره

وكفى في عدم اهتمامه بامور الرعية واصلاح البلاد انه استلحت عن جسيم الموانع في ايامه المشؤومة بلغاريا والروم ايلي الشرقية ودوجه في رومانيا والجبل الاسود واليونان وكريت واضمحت بعض الاقاليم كالعرب والبوسنة تسالياوابيروقارلوقرنسا وتونس واروبس القوقاس وبلغاريا وارمينيا وقارص ونال الجبل الاسود استقلاله وانفصلت قبرص وكريت ارتكاداً واحتل الانكليز مصر وهكذا انفصل من جسم الدولة نحو اثنى عشر عضواً بين الكبير والصغير

ماذا تعد هذه الأمة من سيئات الدور الحميدي ونزع سلطة الحكم من الباب العالي وكانت من قبل فيه على شيء من العقل والقانون وانتقالها الى المابين بحيث يصير الأمة الخصيان والحواري والجواسيس والدجالون والمرتشون والمنافقون والمتطلعون بطابع السياسة الحميدية .

فقد كانت الوظائف والرتب والاوسمة ومظاهر التكريم تباع بالمزاد كما تباع العقار والدار ويفتنها في الانتخاب من لا يهمهم الا حفظ انفسهم وملء جيوبهم وبطونهم حتى هلكت البلاد ليعتني عبد الحميد والمقربون لرغائبه وافقر الفلاح والصانع وهما مادة حياة الوطن واختفت تلك الطائفة الفاسدة من الموظفين الذين سماهم الدستوريون كبير وزراء لمكلفوا جماعة من الاصوص تألفوا في صورة حكومة .

ولكم كان عمال عبد الحميد سيئاً في العراق وسماء الارياف ونزع روح الحياة الوطنية من الناس وما نسى الانسان سياسة المابين في المذابح الارمنية والحروب اليمانية والكريتية وغيرها من المقاتل الاهلية التي القى بها السلطان الشقاق بين ابناء هذا البيت الواحد وفرق مجتمع القلوب عملاً بالقاعدة البادرة « فرق تسد » ولو عقل يجري على قاعدة « اعدل تسد » .

نعم كانت المدارس مبعث تلك القوة التي قضت على السلطة الحميدية بل بقي السلطة الاستبدادية في السلطنة العثمانية . وناشئة الامة الذين كان يحتقرهم السلطان المخلوع ويقويهم المال وطمعهم بالمراتب والرواتب هم الذين دبروا بسلطان العقل اسباب الانقلاب الاخير في المملكة وغلبوا سلطان الجهل فكان يوم ١٠ تموز الماضي مبدأ سعادة العثمانيين وتاج الايام وغرة الشهور والاعوام .

كان الصدر محمود ندیم باشا يقول للسلطان عبد العزيز ان بعض الوزراء يخوفونك بالامة وما الامة الا كمن تراهم يمشون هناك ! واشار الى جماعة من فلاحي الأناضول ! ومثلهم لا يميز ولا يعقل فاصنع ما بدا لك فانتهى الامر بخلع ذاك السلطان وقتله . وكان احمد عزت باشا العابد يحقر للسلطان عبد الحميد امر الامة ويزين له البطش ويقول له ان المسلمين لا يعرفون غيرك خليفة وسلطاناً وربّاً صبوراً فاحكم فيهم بحكمك فهم عبيدك لا ينازعك في التصرف فيهم منازع الاحرار الفراد طائشون . صم اذنك عن سماع خيالاتهم ودعهم يعوون ولا يضروا عواء الكلاب بالسحاب . اما حكومات اوربا فامرها الى التفاهل ان اتحدت كلمتن لا قبل لنا بدفعها وما دمن متخاذلات فنحن في مأمن . وهكذا جرى السلطان المخلوع في دوره الاخير على هذه السياسة الحرقاء فكانت سبباً في نزع السلطة الاستبدادية من يديه يوم ١٠ تموز الماضي وازالته عن العرش يوم ١٤ نيسان

يئس الناس من الخلاص من جور هذا السلطان الا بموته ولكن تلك النفوس الكبيرة من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي التي احتك معظم اعضائها بالاوربيين وبلادهم قطعة من اوربا ابت ان تضيع ملك بني عثمان بالاهمال والتواكل فاضطرت عبد الحميد الى اعلان القانون الاساسي في الصيف الماضي مرغماً ولما لم تطب نفسه لما جرى وانشأت تحدثه باعادة الدور السالف لتكون الاحكام طوع امره ونهيه وهو الحاكم المتحكم في الاموال والاعراض والارواح يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل اخذ يوقد نيران الفتن بين الامة ليقول لها وللاجانب ان العثمانيين لا يليق لحكمهم الا الحكم الاستبدادي

ثم احتال للتفريق بين عناصر الدولة اولاً واغواء بعض الحثوة من رجاله

بالمال ليشتروا دعوته فتألفت جمعيات عناصر بعد اعلان الحرية ولكل منها نزعة خاصة . يريد الارمن توسيع الاختصاص « المأذونية » او الاستقلال الموعى بعبارة اخرى والعرب ينادون بان الترك تمطرهم بحقوقهم وهم يريدون ان يشاطروهم الوظائف لو ينقصلون عن الدولة وبعض الارناؤود يدعون الى مثل دعوة الارمن . ولما رأى السلطان ان الامة انتبهت لدهذه الترهات وقام العقلاء بجاربونها شرع يخلق سبيلاً آخر ويحرك عامة المسلمين باسم الدين بواسطة جمعية القها في الاستانة دعت نفسها بالجمعية المحمدية تطالب بالشريعة الاسلامية ولا تريد القانون الاساسي لانه بزعمها مخالف للاسلام ومن قواعده الحرية والحرية ليست من شأن الدين المحمدي . وهكذا ألفت لهذه الجمعية فروع في الولايات تهيج العامة باسم الدين وتربطهم بالسلطان وذلك على يد زعائف كان المال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغوغاء

كاد عبد الحميد لامته بتدبير الفتنة المحمدية بل بالفتنة العسكرية فعصت جنود الاستانة الاقليلاً بامله لم من الذهب الوهاج ولم يراعوا الدين الذي ولاه الجند واسطة لاضاعة رويتهم احسن من اسكارهم فاسكروهم ليلة الفتنة وفرقوا عليهم الذهب الكثير الذي جمعه من دماء الفقير ليقوموا بالمطالبة باعادة الشرع المحمدي او يوقدون نيران مذبحة عامة يقتل فيها الحرار الامة اولاً ثم الاقرب فالاقرب من رجال الاصلاح والتجديد ولو وفق عبد الحميد لاستعادة سلطته الاستبدادية وتمت له مكيدته الشيطانية لما هلك في هذه الفتنة الاهلية في انحاء السلطنة اقل من مليوني رجل كما وقع في ثورة فرنسا الاولى

ولكن انفراد هذه الامة الحر وقبض ثلة من رجال الدستور الذين سبق الاحتفاظ به من كان اخلاصهم الداعي الاكبر في نجاحهم فقامت بعض ولايات الروم ايلي على ساق وقدم تطالب التطوع في الجندية فتطوع عن الدستور وهب جند الثاني والثالث اي اردنة ومناستير — ومنهما انبعثت حركة الحرية اول مرة — وزحفا في جموع المتطوعة على الاستانة بقيادة البطل المغوار محمود شوكت باشا الفاروقي الجندي فاستولوا على المواقع الحربية في العاصمة في اليوم وقبضوا على الناقض والمناصر من الجند المشاغب وحملوا السلطان عبد الحميد مدار تلك الحركة الذي من نتيج الاستبداد التي عليه في اقل الامم البربرية ومخالفة الشرع وخون كتب الاسلام والاسراف في مال الامة وابعاد اتباع مجلس المبعوثان الاول عهد السلطان محمد الخامس وساقوا ذلك الذي عبث بمصلحة المليين الى قصر الاتيني في ضاحية سلانيك ليجري عليه ما جرى على كل سلطان مخلوع حتى امنه وحوطته بدون ان يحقوا له اهانة احد فحق للدولة والامة ان تفخر بقيام نصر الجيش العثماني المظفر لانه كان سبب حياتها اليوم واعلمها كان هذا الجيش سبب رفع هذه الدولة العلية كما كان في بعض الادوار سبب خفضها

اعلن جيش الدستور الاحكام العرفية اي عطلت القوانين الموضوعة وجعلت العاصمة تحت الاحكام العسكرية وتنازل منتخب الاول جيش الفاتح محمود شوكت باشا وبقائد من اصاغر ديهم ودنياهم بحالة السلطان المخلوع على رعاياه فتسنى للمجلس من كان لهم ضلع في تشريع نظام الامة واهاجة النائمة بالسير الشريفة وحكم على بعضهم بالاشغال الشاقة وعلى البعض

الآخر بالنفي وهكذا تمت الغلبة لكلمة الحق على الباطل وكتب البقاء للحكم النيابي في السلطنة آخر الدهر ان شاء الله

فكرنا ملياً في امر عبد الحميد واردنا ان نصفه في الترجمة فارأينا له مزية يذكر بها ويرحم . بلى وجدناه حسوداً يحسد حتى خصيانه واشق خبر يترامى اليه ان يعلم بان في احدى اطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه فيحتال عليه ليأتي به الى الاستانة ليدفنه حياً فان لم يقدر فلا ايسر عليه من القتل عليه وتزوير حيلة للانتقام منه والحط من كرامته . وكان اذا عزّ لايلحق غباره نمرود وفرعون واذا ذل يذله يكون للانبياء غالباً ينسى منزلته ومقامه . وكان يلذه جداً ان يشهد الشقاق مستحكماً بين حاشيته وباقي بينهم العداوة والبغضاء . وفي ايامه كثر اختلاف النساء الى قصره حاسرات متبرجات يدعوى انه خليفة والخليفة ان ينظر الى المحارم ولا حرج عليه وعليهن ولهذا اخترع لهن وسام الشفقة . ولعل بعض من درسوا الاخلاق الحميدة عن أمم يكبون كتاباً مفصلا فيها ليقرأ الاخلاف عن الاسلاف ماقبلته في ذاك المطبوع قلة التربية والعلم وفساد الفطرة والله اعلم

في سلانيك

لقد سمعوا من الوطن الانينا فضجوا بالبكاء له حنينا
ونادام لنصرته فقاموا جميعاً للدفاع مسلحينا
وثاروا من مرابضهم اسوداً بصوت الاتحاد مزمجرينا
شباب كالصوارم في مضاء يرون وكالشموس منورينا